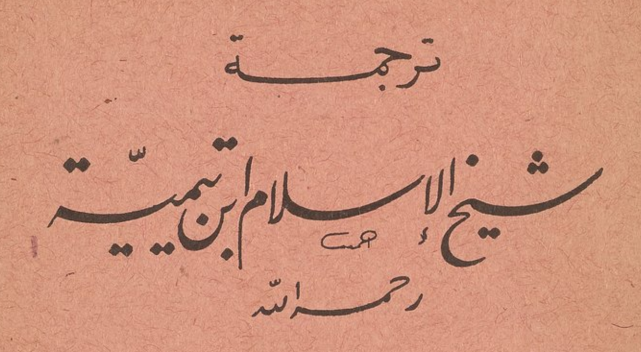


« والله ما يبغض ابن تيمية
إلا جاهل أو صاحب هوى »

قاضي قضاة الاسلام
محمد عبد البر السبكي

بقلم

المؤرخ الكبير المرحوم

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

Muḥammad Kurd-ʿAlī

Tarjamat shaykh al-islām...

ترجمة

شيخ الإسلام ابن تيمية

رحمه الله

« والله ما يبغض ابن تيمية
إلا جاهل أو صاحب هوى »

قاضي قضاة الإسلام
محمد عبد البر السبكي

بقلم
المؤرخ الكبير المرحوم
محمد كرد علي
رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فـــلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله .

اما بعد فهذه ترجمة موجزة لشيخ الاسلام أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، كتبهاله المؤرخ الاستاذ الكبير المرحوم محمد الكردعلي رئيس المجمع العلمي العربي في كتابه « كنوز الاجداد » ، وقد رأينا أن ننشر هذه الترجمة في رسالة منفردة ليعم نفعها في وقت نحن أحوج مانكون فيه الى امثال ابن تيمية في قوة عقيدته وسعة علمه ، واستقامة خلقه ، وبعده عن الاستغلال والهوى ، وجرأته في الحق ، وجهاده باللسان والقلم والسيف في سبيل الله عز وجل ، وفي وقت يحاول فيه بعض أدعياء العلم ان يفتروا عليه ، ويشوهوا حقيقته ، ويقصوا الناس عنه حـــتى لاينكشف بالتعرف اليه تضليلهم وانحرافهم وقصورهم .

ولقد كتب أحد أدعياء العلم هؤلاء من قريب رسالتين ليس منهما الا ما يناقض الكتاب والسنة ، ويدل على الجهل والغرض ، وهاجم في هاتين الرسالتين شيخ الاسلام ابن تيمية وهو لا يعرف - كما بدا من كلامه وأخطائه - في أي عصر وجد . ولم يقرأ شيئاً من كتبه التي أربت على ثلاثمائة مجلد .

ان هذا الدعي وامثاله إما ان يكونوا جاهلين او مغرضين لا يريدون ان يعرف الناس حقيقة دينهم فينقطع عليهم بذلك سبيل الاستغلال والارتزاق بمخادعة العوام ، والوجاهة بالخرافات ، ونشر هذه الترجمة التي كتبها عالم مؤرخ بعيد في هذه القضية من الغرض الشخصي يساعد الجاهلين على المعرفة وإبصار الحق فيعودون الى منهج الصواب ، ويكشف المغرضين أرباب الهوى ويلقمهم حجراً .

اننا لا نريد بما ننشر في هذه الترجمة فضيحة شخص بذاته ، ولم نرد الخصام ، وانما اردنا المعاونة على الوصول الى الحق .. لذلك لم نذكر اسم الدعي الجاهل او المغرض الذي ناقض الاسلام باسم الاسلام ، وهدم في اسسه باسم الغيرة عليه .

واننا لنكون سعداء جداً اذا كشفت هذه الرسالة للقارئين عن حقيقة الامام ابن تيمية ، وردت المخطئين عن خطئهم ، ونبهت المغرضين على ظلمهم ، واعانت الجميع على العودة الى طريق السداد . ونسأل الله تعالى ان يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه ، وان يجعل عملنا خالصاً ، وسعينا منتجاً . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

ابن تيمية

تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحراني

(٦٦١ - ٧٢٨)

ولد بحران سنة إحدى وستين وستمائة وقدم مع والده وأهله الى دمشق ، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين .

فسمع الحديث من أئمته في دمشق ، وسمع مسند أحمد مرات ومعجم الطبراني الكبير والكتب الكبار والاجزاء .

وعني بالحديث وقرأ بنفسه الكثير ولازم السماع مدة سنين ، ونسخ وانتقى وكتب الطباق والأثبات ، وتعلم الخط والحساب في المكتب [١] ، واشتغل بالعلوم وحفظ القرآن وأقبل على الفقه ، وقرأ في العربية على ابن عبد القوي [٢] ثم

---

(١) في الاصل « الكتب » وهو تصحيف . والتصويب من كتاب « العقود الدرية في مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية » لابن عبد الهادي ، ورسالة « الكواكب الدرية » للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي .

(٢) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي بن بدران المرداوي الحنبلي ٦٣٠ - ٦٩٩ .

فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبوية حتى فهمه ، وبرع في النحو وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى حـــاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه ، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة ، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعـــة ادراكه .

ذلك ما قاله من ترجموا له في نشأته .

أما أخلاقه فقالوا : إنه نشأ في تصون [1] تام ، وعفاف وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خُلُقاً ، صالحاً براً بوالديه تقياً ورعاً عابداً ناسكا صوّاماً قوّامـــاً ، ذاكراً الله تعالى في كل أمر ، رجّاعاً إلى الله تعـــالى في سائر الاحوال والقضايا ، وقّافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه ، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل » .

وقبل وظائف والده في التدريس وله احدى وعشرون سنة . وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم ، ودرّس هو بعده فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وما أتى له ثلاثون سنة حتى

---

(١) في الاصل « تصوف » والصواب ماأثبتناه نقـــلا عن كتاب « العقود الدرية » الذي اقتبست عبارة المؤلف منه .

كان من أعظم علماء عصره ، بل أعظم عالم فى عصره ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تروى من المطالعة ، ولا تمل من الاشتغال ، ولا تكل من البحث ، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم الا وفتح له من ذلك الباب أبواب ، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذّاق أهله .

وكان يدخل المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ويأتي بما يحار منه أعيان البلد . وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشر سنة .

قال الحافظ الزملكاني [1] : كان اذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لايعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله .

كان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه مالم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يعرف أنه

---

(١) هو قاضي القضاة الحافظ كمال الدين محمد بن علي الزملكاني الشافعي ٦٦٧ - ٧٢٧ .

ولقب قاضي القضاة مما يكره استعماله قياساً على ملك الملوك كما ذكر ابن القيم في زاد المعاد وقد كره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقال للسلطان ملك الملوك . اخرج ذلك البخاري من حديث أبي هريرة فايرادنا لهذا اللقب هنا لايعني اقرارنا له ولكن رعاية لجانب التاريخ ومحافظة على ما كان مصطلحاً عليه .

ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوب اليه . وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقالوا فيه : « وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه فكان مايقوله من غير توقف ولا تلعثم وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح .

وانتهت اليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة ، وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى وشدة الخوف منه ودوام المراقبة له ، والتمسك بالأمر والدعاء إلى الله تعالى وحسن الاخلاق ونفع الخلق والإحسان اليهم .

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجى في حلوق اهل الأهواء والمبتدعين ، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين ، طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الاعصار » .

وقال الذهبي [١] : إنه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه

---

(١) هو مؤرخ الاسلام الامام محمد بن احمد بن عثمان الذهبي الشافعي ٦٧٣ - ٧٤٨ ومن قوله : =

ولعل تصانيفه في هـــذا الوقت تكون أربعة آلاف كرّاس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صـدره أيام الجمع ، وكان يتوقد ذكاءً ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ ، ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى ، وحفظه للحديث ورجاله وصحيحه وسقيمه مما لا يُلحق فيه ، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن مذاهب الأربعة فليس له فيه نظير ، وأما معرفته بالملل والنحل والاصول والكلام فلا أعـــلم له فيه مثيلًا ، وعربيته قوية جداً ، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب.

قال : فإن ذكر التفسير فهو حامل لوائه ، وإن عد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وإن حضر الحفّاظ نطق وخرســوا ، واستزيد وأبلسوا واستغنى وأفلسوا ، وإن سمي المتكلمون فهو فردهم واليه مرجعهم ، وإن لاح ابن سينا [1] يقدم الفلاسفة

= الفقه قال الله قال رسولة - ان صح - والاجماع فاجهد فيه
وحذار من نصب الخلاف جهالة ما بين النبي وبين رأي فقيه .

(١) هو الحسين بن عبد الله الرئيس ابن سينـــا الفيلسوف المشهور الذائع الذكر في الشرق والغرب له اكثر من مئة مؤاف ورسالة في الفلسفة والطب والإلهيات والنفس والرياضة والاخلاق والمنطق .

وجاء في الاعلام للزركلي : « ياخذ عن الملاحدة المنتسبين الى المسلمين كالاسماعيلية ، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم ، من اتباع الحاكم العبيدي . »
ولد ٣٧٠ ومات ٤٢٨ هـ

فلسفهم وبخسهم وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم .

وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة وهو أعظم من أن تصفه كلمي أو تبينه إشارة قلمي .

وقال في مكان آخر : وله خبرة تامـــة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح وبالسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب فى استحضاره واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى في عزوه الى الكتب الستة والمسند [1] بحيث يصدق عليـــه ان يقـــال : كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، [2] ولكن الاحاطة لله ، غير انه يغترف فيه من بحر وغيره يغترف من السواقي .

وقال أيضاً : كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجّح ، **وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه .**

قال : وما رأيت اسرع انتزاعا للآيات الدالة على المسألة

---

(١) الكتب الستة هي : صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، سنن ابي داود سنن النسائي ، سنن الترمذي ، سنن ابى ماجه ، والمسند هو مسند الامام احمد بن محمد بن حنبل .

(٢) في هذا غلو لا يخفى على المتضلعين بعلم الحديث ولا يرضاه ابن تيمية نفسه لو علم به ، نقول هذا مع اعترافنا بانه قد أحاط بالقسم الاوفى من الحديث وقد أحسن باستدراكه بقوله : ولكن الاحاطة لله .

التي يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه ، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة ... ومن خالطه وعرفه قد ينسبني الى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني الى التغالي فيه ، وقـــد أوذيت من الفريقين من أصحابه واضداده .

وكان ابيض أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره الى شحمة أذنيه ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري الصوت فصيحاً ، سريع القراءة ، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم .. وقال : تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس .

كتب الذهبي الى السبكي [1] يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه : واما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي اكثر من ذلك وأجل مع ماجمعه الله من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن السلف واخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان .

---

(١) هو قاضي قضاة الاسلام بهاء الدين ابو البقاء محمد بن عبد البر السبكي الشافعي .

وقال ابن سيد الناس [1] إنه برّز في كل فن على أبناء جنسه ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه .

* * *

بدأت محنة شيخ الاسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم، فناقشوه و كفروه وبدعوه فنقله الولاة وغربوه ، وكان منذ سنة تسع وتسعين [وستمائه] [2] ظهرت شخصيته السياسية في البلاد وبدأ تعويل الامة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان [3] ، فقام بأعباء الامر بنفسه واجتمع بنائبه وجرأ على المغول [4] وتوجه بعد ذلك بعام الى الديار المصرية لما اشتد الامر بالشام من المغول واستصرخ بأركان الدولة وحضهم على الجهاد ، ثم عاد بعد ايام الى دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الامراء على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم ، وقيامه القيام المحمود في وقعة (شقحب) [5] سنة

---

(١) هو الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس اليعمري الاندلسي الشافعي المتوفى ٧٣٤ .

(٢) لم يذكر في الاصل .

(٣) غازان : قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق .

(٤) المغول والتتار امتان من الجنس الاصفر - ومنهم الاتراك - اكتسحوا العالم الاسلامي فخربوا المدن واذلوا معالم الحضارة ، ثم هداهم الله - بعد ذلك - للاسلام فكان منهم حماة له ومدافعون عنه .

(٥) شقحب عين ماء جنوب دمشق بعد الكسوة على يمين الذاهب الى حوران . جرت فيها معركة عظيمة بين التتار والمسلمين أبلى شيخ الاسلام فيها البلاء الحسن ، وكانت في أول رمضان .

اثنتين وسبعمائة واجتماعه بالخليفة والسلطان ، وأرباب الحل والعقد وتحريضهم على الجهـاد ، ثم توجهه في آخر سنة أربـع وسبعمائـة لقتال الكسروانيين [1] واستئصال شأفتهم ، ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان ، ورجوعهم الى قوله طائعين مكرهين .

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي القضاة الشافعية [2] وعقدهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة ، ثم حبسه في الجب بقلعـة الجبل ومعه اخواه [3] سنة ونصفاً ، ثم اخراجه بعد ذلك وعقدهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه ، ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية [4] ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد ، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنـه بحبس القضاة سنة ونصفاً ، ثم اخراجه منه وتوجيهه الى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية اشهر ، ثم توجهه الى مصر واجتماعه بالسلطان [5] في مجلس

---

(١) الكسروانيون هم سكان جبل كسروان من الروافض والنصيرية واصحاب العقائد الفاسدة . وكلهم كان يداً وعيناً للفرنج والتتار . وقـد جرت المعركة معهم في مستهل ذي الحجة سنة اربـع وسبعمائة .

(٢) هو القاضي نجم الدين بن قصرى ، كما في « العقود الدرية » صفحة ٢٤٨

(٣) هما شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحمن

(٤) اصحاب وحدة الوجود ، وكفر هؤلاء اشد من كفر اليهود والنصارى .

(٥) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفى ٧٤١

ضم القضاة وأعيان الامراء واكرامه له اكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ عن ذلك ، ثم سكناه القاهرة ، ثم توجهه الى الشام ، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وافتاء الخلق. الى أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بهـا في سنة ثاني عشرة [وسبعمائة] ، فقبل اشارته دفعاً للفتنة ، ثم ورد كتاب السلطان بعـد ايام بالمنع من الفتوى بها ، ثم عـاد الشيخ الى الافتاء بهـا وقال :

لايسعني كتمان العلم ، وبقي كذلك مـدة الى أن حبسوه بالقلعة خمسة اشهر وثمانية عشر يوماً ، ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم الى ان ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين ، وكان أجاب به من نحو عشرين سنة ، فشنعوا عليه بسبب ذلك ، وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة وأقام فيها ومعه اخوه يخدمه ، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعضها كتبه واشتهر ، وآل الامر الى ان منع من الكتابة والمطالعة ، واخرجوا ماعنده من الكتب ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً ، وكتب عقيب ذلك بفحم .

وكان اخراج الكتب من عنده من اعظم النقم ، وبقي أشهراً على ذلك واقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى اتاه اليقين .

هذا مجمل ماقيل في حالة شيخ الاسلام . ومع ماحاول اعداؤه ان ينغصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف فألف ثلاثمائة مجلد (١) وكلها في الشرع وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيما وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس وعمله الذي عقمت القرون ان يأتي رجل بما يماثله .

كثرت تآليفه لأنه كان يؤلف من صدره ، حفظ الكتاب والسنة ومادون في شروحها وماقاله العلماء في تفسيرهما ، وقد ساعدته كثرة محفوظه وفيض خاطره وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ، ولو لم يكن له الا «منهاج السنة» لكفاه على الايام فخراً لا يبلى ، ففيه مثال من علمه وقوة حجته ومعرفته بالملل والنحل ، واذا قلنا انه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة لصدقنا كل منصف من أهل القبلة .

وكتاب « منهاج السنة » من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وماتقلب عليه ، وماحاول بعض أهل الأهواء

---

(١) الف الامام ابن قيم الجوزية رسالة في مؤلفات الشيخ فبلغت الرسالة اثنين وعشرين صفحة ، فيها مايقرب من ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة وقاعدة.

من العبث به ، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها ، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الاسلام وتاريخ الملل والنحل ، ولو ادعينا أنه لم يأت عالم [مثله] يعرف ماطر أعلى الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة ويوماً يوماً ماقدر أحد على رد دعوانا .

رد على المعتزلة وعلى الجهمية وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة (١) وعلى غيرهم فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح

---

(١) المعتزلة : فرقة من الفرق الاسلامية وقد سمي اتباعهـــا بالمعتزلة لاعتزال زعيميها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري لما اختلفا معه في حكم مرتكب الكبيرة وقالا : انه في منزلة بين المنزلتين لامؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً . وقيل انهم سمو بالمعتزلة لاعتزالهم رأي الامة في القول المتقدم . وتتلخص تعاليمهم في الاصول التالية :

١ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين .

٢ ـ القول بأن الله لايخلق افعال الناس بل هم الذين يخلقون أفعالهم .

٣ ـ نفي صفات الله من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ...الخ

٤ ـ قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بها شرع ..

وقد تشعبت المعتزلة شعباً مختلفـــاً وهم الذين قالوا بخلق القرآن وكانوا أصحاب منطق وبيان .

الجهمية : هم الجبرية ، ودعوا بالجهمية نسبة الى جهم بن صفوان وكانوا يقولون بأن الانسان مجبر لااختيار له ولاقدرة ، ويقولون بنفي الصفات وبأن القرآن مخلوق ..

وقد مات جهم مقتولا نحو سنة ١٢٨ هـ

الشريعة واستنبطها ببعد نظره وشدة بحثه فما كتب لإمام من الائمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله .

وعلى كثرة ماحرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي[1]، واقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه ، ما كانوا معـــه الا كالأطفال أمام الرجال ، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي ، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان .

اعتقلوه في القاهرة والاسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ ، وماحالوا دون اعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه ولا دون تقديس الامة له يوم موته ، وهي التي عرفته سبّاقا الى كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها ، وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لاتنكر ، ودل انه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم ، وان الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره ، وما سمع لاحـــد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في احقاق الحق ونصرة سلطان الاسلام .

ونسبه قوم الى أنه يسعى في الامامـة الكبرى فانه كان

---

(١) كان خصوم الشيخ في الواقع كل من ضاق افقـه او ظهر حسده من مختلف المذاهب ، كما كان انصاره ايضاً من مختلف المذاهب .

يلهج بذكر ابن تومرت [١] ويطريه فكان ذلك مؤكدا لطول سجنه .

ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار ان يتخلى عن الاسرى من النصارى واليهود فقال : انهم ذمتنا ولابد من ارجاعهم الى ديارهم .

وكم له من مثل هذه الحسنات التي اصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة لايستغني عنها خليفة ولا سلطان .

ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي اقروها، والشريعة تنكرها انكاراظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز وهدى الصحابة والتابعين والعلماء العاملين، واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت الامة على إقرار الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة، وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة الاصلية رغم انوف الخواص فركبوا عار الأبد ولعنوا بما بدلوا وحرفوا، هو لم يأت ببدع، وهم سلموا بكل البدع ، فكان العالم

---

(١) هو محمد بن تومرت صاحب دعوة دينية في المغرب وتعتبر دولة الموحدين ثمرة لدعوته . وقد اعلن انه المهدي وانه ارسل ليقيم حكم الكتاب والسنة ويقمع الفساد والبغي ثار علــى « ابن تاشفين » ولد ٤٨٥ وكانت وفاته ٥٢٤ .

العامل حقاً ، وكانوا عبدة أوهام وضلالات .

أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية لانهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور وكسب قلوب الغوغاء على أي حال .

لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته مايماثلها في المذاهب الاسلامية ولكنها عنده كانت حارة وعند غيره فاترة ، لسلم هذا الدين من تحريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا احداً في الديار الاسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ماينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال[1] .

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء ، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني او سياسي ، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية ان يسلموه للعامة عليهم يقتلونه فما استطاعوا اكثر من حجز حريته أشهراً في سجنه ، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره .

وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً وأراد ان يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم فأنكر ان ينال أحداً منهم بسوء وقال له : اذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم . فقال له : انهم آذوك وارادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل ،

---

(١) انظر كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن واولياء الشيطان »

ومن آذى الله رسوله فالله ينتقم منه ، أنا لاأنتصر لنفسي . وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : مارأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه فلم نقدر عليه وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا . فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون : يجب التضييق عليه ان لم يقتل والا فقد ثبت كفره ، ونحن نقول : ان هذا هو الفرق العظيم بين اخلاقه واخلاق مشاكسيه ، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم ، وهو كان يهتم للاخرى فقط ، وشتان بين المطلبين .

كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه ، وهمهم ان يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا ايديهم .

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان : لولم يبق فيها الاحجر واحد فلاتسلمهم ذلك ان استطعت ، فسلمت القلعة من اذى التتار ، وكان يدور كل ليلة على الاسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عيهم آيات الجهاد والرباط ، وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصروا على عدوهم .

وفي قتال الجرديين والكسروانيين (١) أبان ايضاً عن سياسة

(١) هم من الفرق التي تقدم ذكرها ص ١٣

رشيدة وأرجع بعض الناشزين من أهلها الى الاسلام .

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه مسألة شد الرحال الى قبول الصالحين وغيرهم .

قال ابن كثير [1] : إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الانبياء الصالحين وانما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور .

وزيارة القبور من غير شد رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة اخرى .

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها ويندب اليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ، ولم يتعرض الى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ولا قال انها معصية ولا حكى الاجماع على المنع منها ولا هو جاهل قول الرسول :

« زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » [2]

ثار عليه مرة جماعـــة من الحسدة وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق الرؤوس أيضاً ، وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم .

وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجـــارون وأمرهم

---

(١) هو الامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١ - ٧٧٤)

(٢) عن ابي هريرة رضي الله عنه ، عند ابن ماجه . ورمز السيوطي لصحته

بقطع صخرة كانت بنهر قلوط [1] بدمشق تزار وينذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً .

قال ابن كثير : وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي [2] واتباعه فحسد على ذلك وعودي ولم يصلوا اليه بمكروه وانما أخذوه وحبسوه بالجاه . قال : ولم يزل الشيخ ملازماً الاشتغال في العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب وافتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الاحكام الشرعية .

ففي بعض الاحكام يفتي بما أدى اليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم .

وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى اليه اجتهاده ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف .

---

(١) المعروف الآن بـ « قليط » وهو نهر تجتمع فيه قازورات عدد من أحياء المدينة وتسقى منه بساتين الشاغور والميدان .

(٢) صاحب « الفصوص » « والفتوحات » وغيرهما من الكتب التي تدعو الى وحدة الوجود وقد بين العلماء أن هذه العقيدة أشد كفراً من اليهودية والنصرانية والمجوسية ، ومن اجل كتبه افتى عدد كبير من العلماء بكفره . انظر كتاب « تنبيه الغبي الى تكفير ابن عربي » للامام البقاعي . وكانت وفاة ابن عربي سنة ٦٣٨

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ويحاول قتله - والتعزير عند المالكية القتل - ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادى بدمشق : من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة .

وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها وأشهدوا على انفسهم انهم على معتقد الامام الشافعي .

قال الصلاح الصفدي [1] كان كثيراً ماينشدني :

تموت النفوس بأوصابها ولم يدرِ عوّادها مابها
وما انصفت مهجة تشتكي أذاها الى غير أحبابها

وأنشد على لسان الفقراء (جماعة الطرق) :

والله مافقرنا اختيار وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى وأكلنا ماله عيار
تسمع منا اذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار [2]

---

(١) ، هو الشاعر المؤرخ ولد بصفد ٦٩٦ وتلقى العلم بدمشق وتوفي فيها سنة ٧٦٤ رحمه الله

(٢) الفشار : الكذب والهذيان ،والكلمة دخيلة .

منشورات

المكتب الاسلامي

بدمشق

ص.ب ٨٠٠ ـ هاتف : ١١٦٣٧